

د. يعقوب الحاج عبد الله

قسم اللغة العربية، جامعة إلورن، نيجيريا
08058035554

والحسن عمر ظاد

طالب الدكتوراه بجامعة إلورن، نيجيريا.
08036835471

مقدمة:

يعتبر الشيخ عبد القادر بن علي النوبي من أشهر العلماء النبويين الذين نبغوا في العلوم العربية والإسلامية في الديار النيجيرية. أسس مؤسسة علمية في مدينة زاريا، تخرج فيها العلماء العباقرة، وله إنتاجات علمية قيمة في الشعر والنثر، قرض الشعر في الأغراض الشعرية المختلفة، وكانت قصائده في المدح من أشهرها وأجودها، إذا ذاع صيته في الآفاق بتلك القصائد المدحية، ولمعرفة قوة بيانه وتضلعه في قول الشعر يجدر الوقوف على صور بيانية في قصائده المدحية، لكن لضيق نطاق هذه المقالة أثر الباحثان الاقتصار على ثلاث قصائد مدحية لدراسة الصور البيانية فيها، وهي قصيدة نزهة المحفل في مولد خير المرسل وقصيدة روضة الأحباب في سيد الأقطاب الشيخ أحمد التجاني وقصيدة نور الفيضة الأحمدية في مدح الشيخ إبراهيم نياس، لعل تلك الدراسة تؤدي فكرة عامة عن أسلوبه وخصائصه المدحية. كما فضلاً في هذه العجالة دراسة الصور البيانية وحدها حتى تتسنى لهما تناول ظواهر بلاغية أخرى بالدراسة إن سنحت فرصة، وتتمحور المقالة على حياة الشاعر ودراسة التشبيهات والاستعارة والمجاز المرسل والمجاز العقلي والكناية في القصائد.

حياة الشاعر:

ولد الشيخ عبد القادر بن علي النوبي عام ١٣٢٩ هـ الموافق ١٩٠٠م في بيت من بيوت العلم والعز المسمى بـ "إمفلأكو" (Emifulako) في مدينة "أغي" وتوفي سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م. وكان جده الثاني من قبيلة البرابر وهو عالم كبير، وتاجر فطين، يتجول ببضاعته التجارية حول بلدان مختلفة، حتى وصل بلاد "نوبي" (Nupe) وألقى عصا سفره بمدينة "أغي" (Agaye) واستوطنها، وهو من جهاذة العلماء الوافدين من جهة "برنو" (Boronu) لبث دعوة الدين الحق^(١).

وبعدما استقر بمدينة أغاي (Agaye)، رزقه الله بزوجة صالحة، من أسرة فاضلة، وأنجبت له أولادًا، منهم الشيخ علي، أبو الشيخ عبد القادر، ونشأ على نهج والده في التعلم والتعليم، والتجارة، ولما أشتد ظهره زوجه أبوه فوهبه الله بإنجاب الشيخ عبد القادر علي النوبي. (٢)

تربى الشيخ عبد القادر بن علي النوبي تحت رعاية والديه الكريمين في مدينة أغاي (Agaye)، وقد اهتمت غاية الاهتمام في تحسين نشأته، وكفالاته، وتربيته الدينية، وكانا راغبين على الزرع فيه ما يحمد عاقبته، حيث واجهاه إلى العلم، وقاده إلى مكارم الأخلاق منذ طفولته إلى أن ترعرع على الصراط الجيد، وكان الشيخ عبد القادر بن علي النوبي عاشقًا للعلم وراغبًا في طلبه والعمل به في جميع حياته إلى يوم وفاته. (٣)

التشبيهات:

التشبيه في اصطلاح البيانين هو عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر، بأداة لغرض يقصده المتكلم. (٤)

قد استعان الشاعر بأنواع من التشبيهات في قصائده المدحية تقريبًا للمعاني إلى السامعين، يبرزها في صورة خلاصة، تستدعي إعجابهم. فكلما أراد أن يثبت صفة شيء يعمد إلى شيء آخر تكون فيه هذه الصفة واضحة، وعقد مماثلة بينهما وسيلة لتوضيح الصفة أو المبالغة في إثباتها كما في قوله في قصيدة روضة الأحباب:

وَهَذَا الْفَضْلُ قَدْ عَمَّا لِأَهْلِ الْإِزْثِ مَعْلُومًا
وَمَنْ قَدْ زَارَهُمْ يَوْمًا كَأَنْ قَدْ زَارَ تَجَانِي

إذا تأملنا هذين البيتين نجد الشاعر يريد أن يبين فضل زيارة العلماء للسامعين، ثم لجأ إلى عقد التشبيه بين زيارة سائر العلماء وزيارة الشيخ أحمد التجاني التي كانت معروفة لديهم لما فيها من الفضل والأجر والثواب عند الله لمن قام بها، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من زار عالمًا كأنما زارني" (٥) حيث كان المخاطبون من أهل الطريقة التجانية الذين يوقنون بفضل وأجر عظيم لزيارة شيخهم أحمد التجاني، فإنه يترتب مثل هذا الفضل والأجر لمن قام بزيارة سائر العلماء. وعقد التشبيه بين زيارة سائر العلماء وزيارة الشيخ أحمد تجاني في الفضل، والغرض البلاغي في التشبيه هو بيان مقدار المشبه، وأن العلماء يستحقون التكريم والاعتناء بشأنهم. ويقول في قصيدة نور الفيضة الأحمدية:

إِذَا الْأَذْكَارُ كَالْأَنْفَاسِ * عِنْدَ الْفَيْضِ بَرْهَامُ

عرف الشاعر أهمية الأذكار عند ممدوحه، فأراد أن يبين مقدار تلك الأهمية عند الناس، فلجأ إلى عقد تشبيه بين الأذكار وشيء له أهمية عظيمة في عيون الناس، ويرونها أرفع شيء وأقوى وهي النفس، فشبّه الأذكار بها، لما فيه من صفة مشتركة وهي الإفادة، والنفعة. ونكتة بلاغية فيه هي أهمية الأذكار للمسلم حيث تعطي الذاكرين حياة سعيدة، وتقربهم إلى ربهم، فهي كالتنفس والأنفاس لكل كائن حي لا يعيش بدونها. ومن أروع التشبيهات قوله في قصيدة روضة الأحباب:

لَكَ الْأَصْحَابُ أَصْحَابِي هُمْ سُبَّاقُ أَحْبَابِي
فَفَاقُوا كُلَّ أَقْطَابٍ لَمَّا لَادُوا بِتَجَانِي

وهو قوله: "لك الأصحاب أصحابي" أي قال النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ أحمد التجاني، أصحابك كأصحابي لما جمع بينهم من الصفات، ويفيد التشبيه رفعة المعنى والتسوية في الفضل والكرامة، كما أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم خير الناس بعد الرسول كذلك أصحاب التجاني خير من غيرهم من أتباع الشيخ التجاني. ويقول في قصيدة نور النبوة الأحمديّة:

لَأَنْتَ الْحِصْنُ مِنْ كُلِّ الْمَدِّ — وَفَاتِ الْعَوْتُ بَرَهَامُ
لَأَنْتَ صَخْرَةُ الْجَوْرِ زَمَانَ الْعَوْتُ بَرَهَامُ

وفي البيتين السابقين نجد الشاعر يسوق إلينا صور التشبيهات الجميلة في الألفاظ العذبة اللطيفة، مع انسجام المعاني، وحسن التأليف. وإذا أنعمنا النظر في البيت الأول، يقدم لنا صفة الممدوح، بذكر إسهاماته للناس، وشمائله الجميلة بين أقرانه، فشبهه بالحصن الذي يثبته به الناس عند الخوف، ويلجأ إليه عند الحاجة. وكما عقد التشبيه في البيت الثاني بين ممدوحه وهو الضمير "أنت" وكلمة صخرة الجور لصفة مشتركة بينهما من قوة وشدة عند قيامه لمساعدة الجماعة، وذلك تشبيه بليغ. ويقول في القصيدة نفسها.

إِذَا مَا قِيلَ مَنْ لَيْلًا لَكَ قُلْتُ الْعَوْتُ بَرَهَامُ
رَأَوْكَ الشَّمْسَ فِي غَرْبٍ تَضِيءُ الشَّرْقَ بَرَهَامُ

ففي قوله: "رأوك الشمس" تشبيه وضمير المخاطب في رأوك المشبه والشمس المشبه به على أسلوب التشبيه المؤكد المفصل لحذف الأداة وذكر وجه الشبه، أي الممدوح يضيء الغرب والشرق بعلمه وعرفانه كالشمس التي تضيئ الآفاق كلها. ويقول في قصيدة روضة الأحباب:

وَهَذَا الْقُطْبُ مَكْتُومٌ هُوَ الْبَرْزُخُ مَخْتُومٌ
وَقَضْلُ الْحَنَمِ مَعْلُومٌ جَلِيلُ الْقَدْرِ تَجَانِي

شبه الممدوح بالبرزخ، وهو ما يحول بين شيئين، والضمير الغائب المراد به الممدوح المشبه والبرزخ هو المشبه به وجه الشبه وأداة التشبيه محذوفان، وهو التشبيه البليغ. وفيه مبالغة في اتصافه بكمال الدرجة وختم الولاية. ويقول في القصيدة نفسها:

وَمَا مِنْ ذَرَّةٍ إِلَّا تَنَالُ الْقِسْمَ مِنْ أَلَا
وَأَنْتَ الْوَاسِطُ الْأَعْلَى وَلِيَّ اللَّهِ تَجَانِي

وهذان البيتان ينقلان إلينا صورة من التشبيه الجميل والأخيلة اللطيفة في عذوبة الألفاظ، وجمال التركيب وانسجام التأليف، حيث شبه ممدوحه بالواسط في قوله: "وأنت الواسط" فالممدوح كالواسط الذي يتوسط بين العقود، الذي يتجلى فضله بين أجناسه وهو يمدهم ويزيدهم جمالا وفضلا، فهو كذلك يوصل كل من تعلق به إلى مناه ومرماه. ومن أجمل التشبيهات قوله في قصيدة نزهة المحفل:

وَإِنْ كَانَ مُوسَى بِالْقِ الْعَصَى يَرُدُّ الْعَدُوَّ بِكَفِّ الْحَصَى
يَرُدُّ الْأَعَادِي مَا عَصَى بِصُنْعِ اللَّهِ لَهُ أَحْمَدًا

قد شبه الشاعر حال نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام حين ألقى عصاه أمام سحرة فرعون، وما تضمنت تلك الواقعة من عجائب، وما ترك من شدة الزعر والخوف في قلوبهم بحال أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ رمى الحصى في أعين الكفار كما في قوله تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" (٦) وجعل الشاعر قصة موسى عليه السلام مع سحرة فرعون وما اشتمل عليها من إلقاء الحصى المشبه وحال محمد صلى الله عليه وسلم، وما وقع على أعدائه من الخوف والإذلال برمي الحصى المشبه به على سبيل التشبيه الضمني، والتشبيه يثبت علو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه الدليل على نبوته ورسالته. ومنه قوله:

وَعِيسَى غَدَى يَبْرِيءُ الْأَبْرَصَا وَأَحْمَدُ سَيِّفًا يَرُدُّ الْعَصَى
خَصَائِصُهُ فَوْقَ عَدِّ الْحَصَى فَمَا فِي الْوَرَى مِثْلُهُ أَحْمَدًا

عقد الشاعر التشبيه بين إبراء الأبرص بواسطة النبي عيسى عليه الصلاة والسلام وكون النبي محمد سيفًا في قطع الكفر والكفار وكل الباطل على أسلوب التشبيه الضمني دون التصريح بالمشبه والمشبه به في صورتها المعروفة، لتقرير المشبه به، وإثبات فضله ومعجزته،

أي إن كان للنبي عيسى عليه السلام معجزة بإبراء الأبرص فإن النبي محمد صلى الله عليه وسلم له أبهر معجزة من تلك، وهي رد العصاة من الكفار واستئصالهم.

الاستعارة:

عرفها الجاحظ بقوله: الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه. (٧) يقول

الشاعر:

هُنَاكَ أَتَاهُ جَبْرِيلُ سَفِيرًا فَقَالَ لَهُ قُمْ حَبِيبِي نَذِيرًا
فَطَهَّرَ ثِيَابَكَ وَكَبَّرَ تَكْبِيرًا وَرُجَزًا فَهَاجِرًا بِأَحْمَدًا

استعمل الشاعر كلمة الثياب في البيت الثاني ومعناه الأصلي هو ما يكسو به الإنسان، ويستتر به عورته، أو حلة يتجمل به، والشاعر لم يقصد شيئاً من ذلك، إنما يريد به القلب أو النفس لما كان بين القلب والثوب من المجاورة في صفة السترة، لأن قلب الإنسان هو ستره إذا صلح، كما كان الثوب سترًا للجسم، وهو استعارة تصريحية، وذلك أن القلب يتدنس كما يتدنس الثوب فيحتاج إلى التطهير.

ويقول في قصيدة روضة الأحباب:

وَكُلُّ وَلِيٍّ لَا شَكَّ يَنَالُ مِنْ عَطَايَاكَ
فَيَأْتِي بَابَ جَدْوَاكَ يَشْمُ الرِّيحَ تَجَانٍ

وفي هذا البيت شبه الشاعر جدواك بالبيت يزار فحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو باب على سبيل الاستعارة المكنية، وتفيد الاستعارة أنه كما يتمتع الزائر بالمنى والمقصود عند مزوره، كذلك يتمتع الأولياء بفيوض الخيرات عند الشيخ أحمد التجاني. ويقول في القصيدة نفسها:

هَدَانَا اللَّهُ ذُو مَنِّ صِرَاطَ الْحَقِّ وَالْأَمْنِ
يَكُونُ الْخَتْمُ فِي الْحُسْنِ بِجَدِّ الْخَتْمِ تَجَانِي

عقد الشاعر الاستعارة بين الدين الإسلامي والصراط للمشابهة بين الدين الإسلامي المرضي عند الله، وصراط الحق الذي إذا سلكه سائر لا يضل ويصل إلى مقصوده، ونكر المشبه به وهو الصراط وحذف المشبه وهو الدين الإسلامي على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة حالية نفهمها من سياق الكلام، وهذه الصورة مستمدة من النصوص القرآنية التي تشير إلى الإسلام بالصراط المستقيم. ويقول أيضا:

يَزَاعُ الْفَيْضُ أَمْزَاسِي إِلَى بَرْهَامٍ مِنْ آسِي
مُزَادِي سَيِّدِي سَيِّسِي عَلَى حَبِّ تَجَانِي

شبه الشاعر علي سيّسِي بيزاع الفيض، أي قلم الفيض وحذف المشبه ثم صرح بالمشبه به هو يزاع الفيض، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة حالية، وذلك لما يقوم به هذا الشيخ من الأدوار في الكتابة عن الطريقة التجانية والطرق الصوفية بوجه عام، ومنه قوله في روضة الأحباب:

فسر فوراً للنبراس حكاة النجم في الناس
بل البدر في الفاس فلا لا الشمس تجاني

كلمة النبراس في البيت مستعارة إذ النبراس الحقيقي هو المصباح المنير، ولم يقصد الشاعر ذلك المعنى وإنما يريد بالنبراس الشيخ الممدوح، ولم يذكره بل صرح بذكر النبراس الذي هو المشبه به، والمشبه محذوف على سبيل الاستعارة التصريحية والعلاقة فيه المشابهة، وكذا عقد الاستعارة بين الممدوح والبدر لعلاقة المشابهة بينهما ثم حذف المشبه وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة حالية لما رأى في الممدوح من النور والضيء الباهر. ثم أطلق على الممدوح مرة ثالثة الشمس استعارة أخرى. فالشاعر دهش في شأن الممدوح لما أدرك فيه من الصفات والأنوار، فأطلق عليه النبراس، فاستدرك وأطلق عليه البدر، ثم رأى أنه فوق ذلك فسماه بالشمس، وكأن الممدوح قد اجتمعت فيه هذه الصفات جميعاً. يقول في قصيدة نور الفيضة الأحمدية.

أَخَذْتُ اللَّبَّ مِنْ لُبِّ * لِأَهْلِ اللَّبِّ بَرْهَامُ

يقصد باللّب دين الإسلام يقول إن ممدوحه يقود الناس إلى أعلى مقامات الإسلام، الذي هو مقام الإحسان، فاستعار اللّب لمقام الإحسان، وحذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل "الاستعارة التصريحية". والقرينة المانعة من المعنى الحقيقي حالية وفي القصيدة نفسها يقول:

قَطَعْتُ الْكُلَّ بِالسَّكِي * مِنْ مِنَ الْبَرْهَانِ بَرْهَامُ

كلمة السكين في البيت جاءت على وجه الاستعارة، حيث استعار الشاعر السكين للحجة القاطعة، لعلاقة المشابهة بينهما أي كما يقطع الإنسان اللحم بالسكين كذلك تقطع الحجة ما أشكل من الأمور أو الأقوال، فحذف الحجة التي هي المشبه وصرح بلفظ السكين المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. والقرينة حالية، ويبدو في الاستعارة التأثير المحلي، إذ لم

نسمع مثله في التعبير العربي، ومع ذلك فصورة طريقة تثبت أصالة الشاعر في تأليف الصور والخيال. ويقول الشاعر:

رَمَيْتِ الْقَشْرَ لِلدِّينِ * لِأَهْلِ الْقَشْرِ بَرَهَامُ

استعار كلمة القشر للجهل أي شبه الجهل بالقشر لعلاقة المشابهة بينهما، وهي عدم النفع، وحذف المشبه، وصرح بذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. فهذه الصورة تقابل الصورة السابقة في إطلاق كلمة اللب على الإسلام ومقام الإحسان، ففي هذه المرة فالممدوح يرمي القشر أي الجهل والغباوة عن الدين ويبدله باللب الذي هو غاية الإسلام. ويقول في القصيدة نفسها:

إِلَهُ الْخَلْقِ أَعْطَاكَ * زِمَامَ الْكَوْنِ بَرَهَامُ

فلفظ زمام استعملها الشاعر في غير معناها الحقيقي، بل يشبه القيادة بالزمام، ثم حذف المشبه، أي القيادة، وصرح بالمشبه به في مقام المشبه على أنه عين المشبه، وهو الاستعارة التصريحية. والقرينة حالية تفهم من سياق الكلام، ومن القصيدة أيضا:

هُمُومٌ قَدْ سَبَتَ قَلْبِي * لِفَقْدِ الزُّورِ بَرَهَامُ

وإذا نظرنا في هذا البيت نفهم أن الشاعر يشبه الهموم بجنود في الحرب، وجعل الهموم المشبه، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو سبت على سبيل الاستعارة المكنية كما أن من وقع في السبي لا يملك من أمره شيئا كذلك قلبه فقد استحوذته الهموم التي تراكمت عليه من عدم زيادة شيخه، فالصورة جميلة ومقنعة والقرينة هنا لفظ سبت نفسي. ويقول في روضة الأحباب.

فَلَاذُ بِالْأَائِمِّ الْحَقِّ مُزِيلُ الْمَيْنِ بِالصِّدْقِ
مُضِيءُ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ وَلِيُّ اللَّهِ تَجَانِي

شبه الشاعر الممدوح بالمصباح الذي يضيئ مشارق الأرض ومغاربها وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو هو مضياء على سبيل الاستعارة المكنية. وفي الاستعارة إظهار تأثير الشيخ في مشارق الأرض ومغاربها بنور الإسلام وعلومه ونشر طريقته.

المجاز المرسل:

المجاز المرسل كلمة استعملت في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. (٨)
يقول الشاعر في قصيدة نزهة المحفل:

نسمع مثله في التعبير العربي، ومع ذلك فصورة طريفة تثبت أصالة الشاعر في تأليف الصور والخيال. ويقول الشاعر:

رَمِيتَ الْقَشْرَ لِلدِّينِ * لِأَهْلِ الْقَشْرِ بَرَهَامُ

استعار كلمة القشر للجهل أي شبه الجهل بالقشر لعلاقة المشابهة بينهما، وهي عدم النفع، وحذف المشبه، وصرح بذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. فهذه الصورة تقابل الصورة السابقة في إطلاق كلمة اللب على الإسلام ومقام الإحسان، ففي هذه المرة فالممدوح يرمي القشر أي الجهل والغباوة عن الدين ويبدله باللب الذي هو غاية الإسلام، ويقول في القصيدة نفسها:

إِلَهُ الْخَلْقِ أَعْطَاكَ * زِمَامَ الْكَوْنِ بَرَهَامُ

لفظ زمام استعملها الشاعر في غير معناها الحقيقي، بل يشبه القيادة بالزمام، ثم حذف المشبه، أي القيادة، وصرح بالمشبه به في مقام المشبه على أنه عين المشبه، وهو الاستعارة التصريحية. والقرينة حالية نفهم من سياق الكلام، ومن القصيدة أيضا:

هُمُومٌ قَدْ سَبَتَ قَلْبِي * لِفَقْدِ الزُّورِ بَرَهَامُ

وإذا نظرنا في هذا البيت نفهم أن الشاعر يشبه الهموم بجنود في الحرب، وجعل الهموم المشبه، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو سبت على سبيل الاستعارة المكنية كما أن من وقع في السبي لا يملك من أمره شيئاً كذلك قلبه فقد استحوذته الهموم التي تراكمت عليه من عدم زيادة شيخه، فالصورة جميلة ومقنعة والقرينة هنا لفظ سبت نفسي. ويقول في روضة الأحباب.

فَلْذُ بِالْدَائِمِ الْحَقِّ مُزِيلُ الْمَيْنِ بِالصِّدْقِ
مُضِيءُ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ وَلِيُّ اللَّهِ تَجَانِي

شبه الشاعر الممدوح بالمصباح الذي يضيئ مشارق الأرض ومغاربها وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو مضيء على سبيل الاستعارة المكنية. وفي الاستعارة إظهار تأثير الشيخ في مشارق الأرض ومغاربها بنور الإسلام وعلومه ونشر طريقته.

المجاز المرسل:

المجاز المرسل كلمة استعملت في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. (٨)

يقول الشاعر في قصيدة نزهة الحفلا:

نَبِيٍّ وَأَدَمُ طِينٌ وَمَا أَجَبْتُ بَلَى قَبْلَ مَنْ قَدَمَا
مِنَ الْأَنْبِيَا عِنْدَ مَنْ فِي السَّمَاءِ بَيَوْمِ الْاُسْتِ اَيَا اَحْمَدَا

وكلمة "طين" هو التراب على اعتبار ما كان آدم قبل خلقه. أي أن محمد صلى الله عليه وسلم قد اصطفاه الله نبيا وآدم حينئذ كان طينا على سبيل المجاز المرسل، والعلاقة اعتبار ما كان. ويقول في روضة الأحاباب:

ومن في الجمعة الغرا زاره فاز بالهور
حوته خيمة حضرا لأن قد زار تجاني

والكلمة: خيمة حضراء لم يرد بها الشاعر الخيمة الحقيقة إنما يريد به رضى الله تعالى، والأمن من الخوف، فكلمة خيمة المجاز المرسل وعلاقة بينهما هي محلية. ويقول في القصيدة نفسها:

شَرِبْنَا الْحَوْضَ بِالرَّيِّ وَسِرْنَا الْقُدْسَ لَالِي
بِصُحْبِ السَّيِّدِ الْحَيِّ مُرَادِي جَدُّ تَجَانِي

فكلمة الحوض في البيت "المجاز المرسل" إذ أطلق الشرب على الخوض لكن يريد ماءه للعلاقة المحلية، إذ الحوض هو محل الماء على أسلوب المجاز المرسل. ويقول الشاعر في قصيدة نور الفيضة الأحمديّة:

حبيب الحق بواب * ولوج الكل برهام

استعمل الشاعر كلمة بواب ويعني بها الوسيلة أي أن الممدوح وسيلة وسبب للوصول إلى الله تعالى، فمن أراد الوصول إلى الله فليتبعه، فإطلاق بواب عليه مجاز مرسل. **المجاز العقلي:**

هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر، لعلاقة مع قرينة صارفة أن يكون الإسناد إلى ما هو له في الظاهر^(٩). نحو قول الشاعر في قصيدة نزهة المحفل:

وَأَنْتَ الْحَبِيبُ رَفِيقُ الْخَلِيلِ لِيذَا أَبْرَدْتَ نَارَ مَنْ غَلِيلِ
فَتَأَبَّ الْعَدُوَّ حَقِيرًا ذَلِيلًا كَذَا فَلْيَكُنْ مُنْبِضَ أَحْمَدَا

في هذا البيت إسناد فعل البرد إلى النار، وهذا الإسناد غير الحقيقي لأن النار لا يبرد بنفسه، بل يبرد بسبب من الأسباب، ويقال لمثل هذا للإسناد بالمجاز العقلي. ونحو قوله في نزهة المحفل:

تَجَهَّرَ مِنْ مَكَّةَ هَاجِرًا عَلَى مَا قَضَى رَبُّهُ صَابِرًا
إِلَى يَثْرِبَ دَارَ مَنْ نَاصِرًا وَءَاوَتْ مَدِينَتُهُمْ أَحْمَدًا

فإسناد الشاعر فعل إيواء إلى المدينة إسناد غير حقيقي والفاعل الحقيقي في إيواء النبي هو أهل المدينة، وعلاقته محلية.

الكناية:

هي إخفاء المعنى مع ذكر الدليل والإشارة عليه، (١٠) مثل قوله الشاعر:

أَسِيرُ الْخُبِّ لِلْمَيِّ * وَلَيْلَى فَرَّتْنِي زَيِّ

أراد الشاعر أن يقول أنه صار ملتبسًا بحب ممدوحه، فعدل عن التصريح بذلك إلى لفظ أسير تبجيلاً وتعظيماً وكنى اللزوم بكلمة الأسير على أسلوب الكناية الموصوفة. وفي روضة الأحباب يقول:

رِقَابُ الْأَوْلِيَا كُلاَ بِتَحْتِ الْقَدَمِ لِلْأَعْلَى
مَقَامًا ذَاعِيَ الْمَوْلَى حَبِيبُ اللَّهِ تَجَانِي

وقوله: "رقاب الأولياء كلا بتحت القدم" كناية عن تفوق درجته على غيره من الأولياء، وعدل الشاعر إلى كنائيتها بهذه الصيغة على سبيل كناية الصفة عن الموصوف. ويقول في قصيدة نزهة المحفل:

وَقَدْ جَاءَ نَاهِيًا وَآمِرًا قُلُوبَ أَحِبَّتِهِ جَابِرًا
وَأَعْنَاقَ أَعْدَائِهِ كَاسِرًا أَنَادِيهِ يَا شَافِعِي أَحْمَدًا

وفي هذا البيت استخدم الشاعر كسر أعناق الأعداء، كناية به على معنى الغلبة، على أسلوب كناية الصفة عن الموصوف، إذ بكسر أعناق الأعداء يذهب قوتهم وحيلتهم. ويقول في قصيدة نور الفيضة الأحمدية:

يُلِينُ الْجَنْبَ لَا فِظًا * غَلِيظَ الْقَلْبِ بَرَهَامُ

وجملة يلين الجنب في البيت، كناية عن سعة القلب، التي أراد الشاعر أن ينسب إلى الممدوح، وهي كناية الصفة عن الموصوف، والكناية مستوحية من صور القرآن حيث يقول الله في وصف رسوله صلى الله عليه وسلم: "ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك" (١١) ومنها قوله:

ينابيع العلوم ومعد * ن الأسرار برهام

وينابيع العلوم، ومعدن الأسرار في البيت كناية عن الممدوح، على أنه مخرج العلم وأسرار الله على سبيل كناية الصفة عن الموصوف.

الخاتمة:

استطاع الشاعر إظهار مهارته الفنية والبلاغية في القصائد المدحية المدروسة، حيث تجلت فيها ظواهر بلاغية جميلة تبرهن على الذوق البلاغي لدى الشاعر وتضلعه على توظيفه في أبياته الشعرية. فقد رأينا فيما سبق صور تشبيهات طريقة واستعارات خلابة وكنائيات مناسبة، تتجلى كلها في ثنايا أبيات القصائد، يسوقها الشاعر لتأصيل معانيه المدحية وإثبات الصفات المحمودة للممدوحين. وكل ما توصلنا إليه من نتائج في هذه القصائد المدروسة يمثل أسلوب الشاعر فيما تبقى من القصائد غير المدروسة والقصائد المدحية التي لم نقف عليها. وللشاعر إنتاجات أدبية أصلية في الشعر والنثر يجدر للباحثين والدارسين دراستها وإخراجها للقراء.

الهوامش:

- ١- زكريا بن الشيخ، إمارة نوبي وما جاورها، المخطوطة، ص ٨٩.
- ٢- أحمد محمد زاريا، مساهمة الشيخ عبد القادر بن علي النفاي في تطور اللغة العربية والدراسات الإسلامية بمدينة زاريا، بحث قدمه إلى جامعة أحمد زاريا، ١٩٩٢م، ص ١٩.
- ٣- سراج الدين بن الحسن، حياة عبد القادر بن علي النوبي وعبقريته في شعر المدح، بحث قدمه إلى جامعة مليزيا لنل درجة الليسانس في اللغة العربية، ٢٠١٤م، ص ٥١.
- ٤- السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني البيان والبدیع، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ٢٦١.
- ٥- عمر الحسن، مختار الحديث، شارع الزهراء، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٧٨.
- ٦- سورة الأنفال: ١٧.
- ٧- الدكتور عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ١١٩.
- ٨- علي الجازم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبدیع، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ١٣٠.
- ٩- محمد عبد الغني، البلاغة التطبيقية، شارع المطار، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١١٣.
- ١٠- أيمن عبد الغني، الكافي في البلاغة، دار التوفيقية للتراث والنشر، القاهرة، ٢٠١١م، ص ٩٢.
- ١١- سورة آل عمران: ١٠٩.